الرحالة الأجانب
في الج
قبل الق

رغم أن الجزيرة العربية تقع في قلب العالم القديم ، وبجانب الطريق الأساسي لتجارته ، فقد ظلت شبه مجهولة للرحالة الأجانب حتى القرن التاسع عشر ، وكان السبب في ذلك أنها ظلت حتى ذلك التاريخ قليلة العطاء الاقتصادي مما جعل التجارة العالمية تكاد لا تأبه بها ، وهي في الوقت نفسه وعرة المسالك مما جعل الطواف حولها بحرا أكثر يسرا من سلوك طرقها ودروبها • ومع ذلك فقليلة هي المناطق التي لعبت في تاريخ البشرية دورا يشبه دورها أو يدانيه •

والجزيرة العربية كتلة مترامية الاطراف تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة ، تمتد بين البحر الاحمر والمحيط الهندي والخليج العربي ، ويحددها في كل الجهات عدد من الصدوع واضحة المعالم الا في الشمال حيث تتدرج الهضبة الى أرض الحماد السورية ، ثم في بعض أجزاء من الشمال الشرقي حيث تنتهي الى سهول الخليج العربي •

زيرة العربية
رن التاسع عشر

الاستاذ الدكتور محمد محمود الصياد

ويقع معظم وسط الجزيرة العربية وغربها على ارتفاع يتراوح بين ٦٠٠ متر و ٩٠٠ متر فوق سطح البحر ، وان تكن هناك جروف تزيد عن ذلك كثيرا . وقد مالت الهضبة حتى أصبحت حافات الجانب الغربي أكثر ارتفاعا من حافات الجانب الشرقي ، وتسود الصخور النارية على طول الجانب الغربي من جنوب غرب سورية حتى عدن . وأدى تدفق الطفوح على طول خطوط الانكسارات الى رفع مستوى السطح في بعض الجهات وتكوين هضاب بازلتية واسعة تعلوها أحيانا مخروطات بركانية قد يتجاوز ارتفاعها ١٥٠٠ متر ولكن هذه الآثار البركانية تقل كلما أوغلنا في اليابس حتى تكاد تختفي في القسم الشرقي من شبه الجزيرة .

وتتغطى الهضبة بصفة عامة بتكوينات رملية ، وهي أرض صحراوية جافة تخلو من الأنهار ولكن يقطعها عدد من الأودية العميقة الجافة ، أكثرها نضجا هي تلك التي تتبع ميل الهضبة في الشرق وفي الشمال الشرقي ، ومن ثم تنفتح على الخليج العربي وحوض الفرات .

وليس من هدف هذا البحث أن يفصل الحديث عن جغرافية الجزيرة العربية، وحسبنا أن نشير الى أن التضاريس الوعرة التي عليها الجزيرة ، والمساحة الشاسعة التي تشغلها ، وقلة موارد الماء التي تتميز بها ، كل أولئك جعلها مجهولة من العالم الخارجي بل والعالم القريب منها ·

وفي القرنين الأخيرين فقط نشطت الدول الاستعمارية على أطرافها وتوافد عليها في القرن التاسع عشر الرواد من جميع الجهات لاختراق داخلها ، وجمع المعلومات عن هذا الداخل الغامض لا حبا في العلم أو بحثا عن المعرفة ولكن لأغراض استعمارية حتى خلصت السيطرة على معظم سواحلها لدولة بحرية استعمارية هي بريطانيا ·

وهكذا وفد الى الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر كثير من الرحالة من أمثال دكتور سيتزن (١٨١٠) Steezen الذي زار الجهات الجنوبية من بلاد العرب ، والرحالة السويسري يوهان لود فيج بوركهارت (١٨١٤) الذي زار الحجاز في زي حاج منتحلا اسم ابراهيم بن عبدالله · والضابطان ولستيد J. F. Wellsted وكروثندن C. Cruthenden (١٨٣٥) اللذان قاما بأول محاولة لاجتياز حضرموت ، وادولف فون فردي (١٨٤٣) Adolf Von Werder الذي استطاع الوصول الى وادي دوغان وتوغل حتى بلغ أطراف الربع الخالي · وجورج أوغسطس والين George Augustus Walin (١٨٤٥) والذي زار نجد وكتب عنها والصيدلي الفرنسي توماس يوسف أرنو (١٨٤٥) Themas Joseph Arnaud الذي قام برحلة الى اليمن (١٨٥٤) والسير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton وقد زار الحجاز متنكرا مع الحجاج كما فعل بوركهارت من قبل · وبالجريف W. G. Balgrave (١٨٦٢ ـ ١٨٦٣) الذي زعم أنه زار بريدة رالرياض والخرج والأفلاج وكانت رحلته محل شك · ويوسف هاليفي Joseph Halevy (١٨٦٩) اليهودي الفرنسي الذي دخل اليمن في هيئة يهودي متسول من أهل القدس · وتشارلس دوتي Charles M. Doughty الذي وضع كتابا عن أسفاره في الجزيرة وكان متعصبا ضد الاسلام ولكنه لم يستطع أن ينكر الفضائل التي يتحلى بها البدو · والسيدة أن بنت (١٨٧٩) Anne Blunt التي تجولت في شمال بلاد العرب وبلغت أرض نجد ، وغير هؤلاء كثيرون مما لا يتسع المجال لذكرهم ·

ورغم الكثرة العددية لرحالة القرن التاسع عشر وما تلاه ، فان الأمر لم يكن كذلك في القرن الثامن عشر وما سبقه من قرون · ولعل أول من تعرف من الرحالة القدماء الذين زاروا جزيرة العرب هو الجغرافي المؤرخ استرابون Strabon فقد رافق الحملة التي قام بها صديقه القائد الروماني أوليوس جالاس Aelius Gallus لغزو الجزيرة لأول مرة في التاريخ سنة ٢٥ قبل الميلاد ووصل الى نجران ولكنه هزم عند نسكه Nesca التي يظن أنها خربة البيضا الحالية · وقد خصص استرابون فصلا خاصا في الجزء السادس عشر من كتابه لوصف الاحوال الاجتماعية والاقتصادية لجزيرة العرب كما شاهدها ·

ثم يصادفنا من بعد استرابون رحالة يوناني لا نعرف اسمه وضع في نهاية القرن الاول للميلاد كتابا بعنوان « الطواف حول بحر ارتريا » وهو البحر الاحمر Periplus or De Mari Erythraes ويبدو أنه كان تاجرا يطوف بالسواحل فلم يهتم بشيء سواها · أما الاقسام الداخلية من بلاد العرب فلم يكن يعرف عنها شيئا فيما يبدو ·

وتصمت المصادر بعد ذلك ، فلم نعد نسمع عن رحالة وفدوا على الجزيرة العربية وكأنها قد انعزلت عن العالم فلم يعد لها به صلة · وهو أمر نشك فيه ، فالقرآن الكريم يقص أن قريشا كانت تقوم بنقل متاجر اليمن والبلاد الحارة الى الشام والمناطق الخاضعة للروم · « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف » · وهو يبين في موضع آخر أن العرب كانوا على علم بانقسام العالم على ذلك العهد الى قوتين عظميين هما الفرس والروم : « الم ، غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فاذا كان هذا هو شأن العرب كما جاء في كتاب الله وهو أصدق القائلين فهل نستبعد أن يكون بعض المغامرين من رحالة الروم قد زاروا جزيرة العرب وتوغلوا فيها ؟ انه افتراض ليس لدينا عليه دليل مكتوب ، ولكنه أمر غير مستبعد على اي حال ·

وتشيخ الحضارة الرومانية وتتقوض أركانها أمام غزو البرابرة من وسط أوربا في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد ، فيبربرون روما بدلا من أن تصقلهم هي بحضارتها ، وتسقط روما ولكن تبقى القسطنطينية عاصمة للأمبراطورية في الشرق حتى عام ١٤٥٣ · أما في الغرب فقد لفظت نفسها الأخير وران على أوربا ظلام العصور الوسطى التي امتدت نحو تسعة قرون انبعث خلالها نور الاسلام ، ولم

يمض قرنان على ظهوره حتى كان قد شرق حتى بلغ حدود الصين ، وغرب حتى انتهى الى سواحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وعبر مضيق الزقاق (جبل طارق) وأوغل في أوربا حتى نهر اللوار ثم توقف في بواتييه .

وعادت أوربا تتعرف الى العرب الذين جاءوا بذلك الدين السمح وتلك الحضارة الزاهرة ، ولكنها لم تحفل بالبلاد التي جاءوا منها بعد أن أصبحت مراكز الحضارة العالمية في بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وليس في مكة والمدينة ، بل ونما نوع من الحقد في نفوس الأوربيين على البلاد التي ولد فيها المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى الدين الذي جاء به . وتجلى هذا الحقد في الحروب الصليبية ، وحاول أحد أمرائهم وهو رينولد دي شاتيون صاحب الكرك غزو الاجزاء الشمالية من جزيرة العرب ولكنه باء بالفشل سنة ١١٨٢ حيث هزمته جيوش صلاح الدين على بعد مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة .

وجاء عهد النهضة الأوربية ونشطت حركة الكشوف الجغرافية وكان البرتغاليون أسبق شعوب أوربا الى الاسهام في هذه الكشوف . وكانت جزيرة العرب من البلاد التي سمعوا بها دون ان يروها . ومن ثم فقد وفد اليها في سنة ١٤٨٧ على عهد ملكهم جون رجل منهم يحسن الكلام بالعربية يدعى بيتر دي كويلان Peter de Couillan (Pero de Couilha) روي عنه أنه زار مكة والمدينة وهي رواية تحوم من حولها الشكوك وسواء صحت أم لم تصح فنحن لا نعرف عن رحلته سوى ما روي عنه وعنها فهو لم يكتب عن الرحلة أي شيء .

بعد ستة عشر عاما من هذه الرحلة قام لود فيكو دي فارتيما Ludvico de Varthima برحلته وكان مغامرا بولنديا فيما يقال وان أنكر عليه بعض الكتاب هذا الأصل وزعموا انه كان نبيلا رومانيا ادعى البولندية ، ولا تهمنا جنسيته بقدر ما تهمنا مذكراته التي كتبها عن رحلته الى جزيرة العرب ، تلك المذكرات التي صادفت من الرواج عند صدورها أكثر مما صادفت كتب رحلات أخرى حتى لقد ترجمت الى كثير من اللغات . وكان الدافع لفارتيما الى رحلته حب المغامرة والرغبة في كشف المجهول كما يروي هو في صدر مذكراته حيث يقول أنه قد عقد العزم على زيارة البلاد التي لم يقم أسلافه بزيارتها من قبل . وقد أبحر فارتيما من البندقية في سنة ١٥٠٣ فزار القاهرة وبيروت وطرابلس وحلب ثم استقر في دمشق قرابة عام يتعلم فيها اللغة العربية ، وتعرف فيها على ضابط

من المماليك عهد اليه والى كتيبته بحراسة الحج الشامي ، وبطريقة ما استطاع أن يلتحق بالكتيبة وتزيا بزي المماليك وتحدث العربية بعجمتهم ·

وسارت القافلة فمرت بأرض حوران حيث أقامت ثلاثة أيام في بلدة المزيريب وسجل فارتيما في مذكراته انطباعاته عن بدو حوران وشجاعتهم وركوبهم الخيل بلا سروج · ثم واصلت القافلة رحلتها ، ولم يذكر الرحالة أسماء المواقع التي نزلت بها واكتفى بذكر المزيريب ومكة المكرمة · ولكن يبدو من كتاباته أن القافلة قد اجتازت صحراء النفود فهو يذكر أنها اخترقت منطقة قاحلة هلك فيها من العطش ثلاثون شخصا بالاضافة الى عدد من المحتضرين تركوا على جوانب الطريق ·

وبعد مسيرة اثنين وعشرين يوما تمر القافلة بما يسميه مدينتي « سدوم » و « غمورة » ويروي ما قرأه في التوراة عن هاتين المدينتين التي حاقت بهما اللعنة التي أصابت قوم لوط ، ولا شك أن صاحبنا كان مخطئا فيما ذهب اليه فالمدينتان تقعان في نواحي البحر الميت وليس في جنوب صحراء النفوذ ، وأغلب الظن أنه شاهد خرائب مدائن صالح والعلا فاختلط عليه الأمر وروى ما رواه ·

ثم تتحدث مذكرات الرحالة عن منطقة يسكنها قوم من اليهود يبلغ عددهم قرابة الخمسة آلاف ، يجاهرون بيهوديتهم ويكرهون المسلمين كرها شديدا ويعيشون شبه عراة وأصواتهم شبيهة بأصوات النساء ولا شك أن هؤلاء هم بقايا يهود خيبر الذين كانوا ينزلون غير بعيد عن المدينة ·

وتبلغ القافلة المدينة المنورة ويدهش فارتيما دهشة بالغة عندما يرى قبر الرسول فقد كان اعتقاده أن جثمانه الطاهر معلق في الهواء فهكذا كانت الخرافات التي تروى في أوربا عن الاسلام والمسلمين ، ويصحح فارتيما لأوربا خطأها · ويكتب في وصف مسجد المدينة وكيف يضم بجانب قبر الرسول قبري أبي بكر وعمر ولكنه يخطىء عندما يذكر أن المسجد يضم كذلك قبور عثمان وعلي وفاطمة الزهراء والتاريخ الثابت يروي أن عثمان دفن بالبقيع وأن عليا كان النجف مثواه الأخير ، ويسهب فارتيما في وصف المسجد النبوي وشكله المربع · وأعمدته الاربعمائة ومصابيحه التي تربو على ثلاثة آلاف وتظل مضاءة بالليل والنهار ·

ويصل فارتيما الى مكة المكرمة ويعجب بالمدينة المقدسة ويصف ما يحيط بها

من جبال وكيف أنها تقع في واد غير ذي زرع تهوي اليه أفئدة الناس مما جعلها مركزا للتجارة تتجمع فيها تجارة الهند والبنغال وفارس ومصر وسورية وبلاد الحبشة ، وتمتلىء أسواقها بالجواهر والعطور والمنسوجات القطنية والحريرية وتحيط المتاجر بأبواب المسجد ، وتزدحم المدينة بالناس بشكل لم ير له فارتيما مثيلا من قبل ·

ويصف الرجل الحرم المكي وصفا دقيقا ، ويعجبه مظهره فيقارن بينه وبين مدرج الكوليزيوم في روما ، ثم يعرج على وصف الكعبة وأستارها الحريرية وبابها المصنوع من الفضة الخالصة والذي وضع على جانبيه اناء مملوء بالعطر ، ثم يتكلم عن مناسك الحج من طواف القدوم والصعود الى عرفات والنزول الى منى ، والأضحية وكيف توزع لحومها ، ورمي الجمرات وطواف الافاضة ، وهكذا لا يترك منسكا الا وصفه وكانما هو يضع دليلا للحجاج · ولا يفوته أن يتحدث عن حمام الحرم وكيف يحرم ذبحه ويعلل ذلك بأن هذا الحمام هو من نسل الحمامة التي عششت على النبي في الغار · ومما يدعو الى الدهشة ما يذكره من أنه رأى في جانب من جوانب الحرم اثنين من حيوان وحيد القرن لا يؤذيان احدا · ولا نستطيع ان نفسر مثل هذا القول من رحالة اتسمت كتابته بالموضوعية وكان صادق الرواية الى حد كبير ·

وتنتهي مناسك الحج ويتأهب الحجاج للعودة الى دمشق ، ولكن فارتيما لا يريد أن يعود فهو لا يزال متلهفا الى أن يرى عن بلاد العرب أكثر مما رأى ، وأن يصل الى ذلك الجزء الذي عرف باسم العربية السعيدة Arabia Felix وكان هو كل بلاد العرب في نظر الأوربيين · ولكن أنى له هذا والابواق تتعالى بدعوة المماليك للالتحاق بكتيبتهم وصوت المنادي ينذر المتخلفين بالاعدام شنقا ؟! ولكن الحظ يواتيه عندما يرسله سيده الضابط الى السوق لشراء بعض لوازمه ، ففي السوق احتك به أحد الاشخاص واتهمه في اسلامه اذ سبق له أن رآه في روما · ومع أنه حلف بأغلظ الايمان أنه على دين الاسلام فلم يصدقه متهمه ، ولم يجد مفرا من أن يصحب الرجل الى منزله عساه يتمكن من اقناعه بعيدا عن أعين الناس، وفعلا اقتنع الرجل بعد أن شرح له فارتيما أنه أسلم في القاهرة وانخرط في سلك المماليك · ونشأت بين الرجلين صداقة استغلها فارتيما في أن يختبىء بمنزله حتى رحلت قافلة الحج الشامي فودع صديقه العربي ورحل الى جدة فقضى فيها أسبوعين ملازما لمسجدها لا يبرحه الا ليلا لشراء الطعام ·

ومن جدة أقلع فارتيما في سفينة متجهة الى بلاد فارس ويصف رحالتنا في مذكراته رحلته البحرية هذه فيتحدث عن شعاب المرجان القريبة من سطح الماء والتي تمثل خطرا على الملاحة فيما بين جدة وجزر قمران · وترسو السفينة في ميناء جيزان الذي يعد فيه نحو خمسين سفينة ويدهش لجمال الميناء ومن البلدة التي لم يكن يتصور أن يجد فيها كل أنواع الفاكهة التي رآها · وتقلع سفينته من جيزان فتصل الى عدن التي يصفها بأنها من أقوى المدن تحصينا ولم يرى في حياته ما يدانيها في حصونها اذ تحيط بها الجبال والأسوار العالية وتقوم على حمايتها خمس قلاع · وهي شديدة الحر حتى أن الاسواق تقام فيها بعد منتصف الليل · وترسو في مينائها كثير من السفن وما أن ترسو سفينة حتى يهرع اليها رجال السلطان لتحصيل المكوس ، وينزعون أشرعتها وسكانها ليحولوا دون هربها قبل دفع المكوس المتوجبة عليها ·

وكانت عدن في مطلع القرن السادس عشر قد بدأ يهددها البرتغاليون الذين أصبحت لهم السيادة على سواحل شبه الجزيرة العربية قبل أن تظهر شركة الهند الشرقية الهولندية ونظيرتها البريطانية في القرن التالي · وكان طبيعيا أن يتشكك أهل عدن والحالة هذه في ركاب السفن التي ترد الى فرضتها · وقد أحاطت الشكوك بفارتيما فاتهم بالنصرانية والجاسوسية معا وألقي القبض عليه ثم أفرج عنه بعد شهور في قصة يرويها ولا نشك في أنها من نسج خياله · واستطاع بعد اطلاق سراحه أن يزور لحج وتعز وصنعاء وزبيد ، وتحدث عن الخصومة بين الشوافع والزيود ولكنه لم يفهم طبيعة هذه الخصومة وما كان له أن يفهمها وهو يجهل تاريخ الاسلام· ويبدي الرحالة اعجابه بصنعاء وأسوارها وينابيعها وبساتينها ، ثم ينتهي به المطاف الى عدن مرة أخرى ومنها يركب البحر فيزور أثيوبيا وبلاد فارس والهند وفيها ينضم الى جيش البرتغال ويحارب معه بعض المعارك ومن ثم ينعم عليه ملك البرتغال بلقب فارس عندما يعود الى لشبونة في سنة ١٥٠٨ ومن لشبونة يرحل الى روما ويعيش في كنف أسرة سفورزا التي ساعدته على نشر مذكراته · وكما نجهل بداية نجهل خاتمة هذه الحياة · ولكن الذي نعرفه أن الرجل كان دقيق الملاحظة الى حد كبير في كل ما سجله من وقائع رحلته · ولم يكن لود فيكو دي فارتيما جغرافيا بطبيعة تكوينه فكان أكثر اهتماما بمغامراته الشخصية منه بالمسرح الذي مثلت عليه ولكن كانت له هنا وهناك ملاحظات بارعة ·

ويأتي من بعد فارتيما رواد زاروا بعض أجزاء الجزيرة العربيـة وبخاصة المناطق الساحلية منها ولم يكن غرضهم الرحلة لذات الرحلة والسعي وراء المعرفة ، وانما لأغراض اخرى فقد تميز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين الذين سبقوا غيرهم في الوصول الى الشرق وبين شركتي الهند الهولندية والبريطانية ، واخذت كل من الشركتين تسعى لاقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي كتلك التي أنشأها البرتغاليون ، خاصة وأن البن قد عرف ، وبدأت القهوة تنتشر كمشروب في أوربا ، واصبحت جزيرة العرب في نظر الأوربيين بلاد البن قبل أي شيء آخر ، وأرسلت الشركة الهولندية فان دن بروكه ثلاث مرات الى سلاطين الجنوب العربي واستطاع بمعاونة هؤلاء السلاطين التجول في بلاد اليمن وأرسلت الشركة البريطانية الكابتن الكسندر شابري (١٦٠٩) Alexander Sharpey الى عدن والبحر الاحمر ثم أرسلت من بعده هنري ميدلتون Henry Middleten فزار عدن والمخا حيث أسر وأرسل به الى صنعاء التي يسميها ويصفها بأنها اكبر من برستول ومبانيها من الحجر وفي الجانب الشرقي منها القلعة وفي الغرب تنتشر البساتين · ويفك أسره فيعود الى المخا مارا بذما التي يصفها بأنها حسنة البناء وتتكون كثيرها من القرى من خمسة أحياء منفصلة ·

ولم تقف فرنسا بمعزل عن تجارة البن بعد أن شاع استعمال القهوة فيها حتى تغنى شعراؤها بذلك المشروب الأسود الوافد من الشرق فأسس تجار سان مالو شركة لاستيراد البن من مصدره الأصلي في اليمن فأرسلوا لهذا الغرض بعثتين في مطلع القرن الثامن عشر كانت أهمها الرحلة الثانية التي كان على رأسها الجراح باربييه Barbier والضابط دي لا جريلوديير Major de la Grenloddiere ولم يصلنا التقرير الذي قدماه عن الرحلة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ولكن قصة الرحلتين قد سجلها لاروك La Roque ونشرها في كتاب بعد عودة الرحلة الاخيرة ببضع سنوات ·

وفي القرن الثامن عشر زاد رخاء أوربا لما تدفق عليها من خيرات المناطق التي استعمرتها ، ومع الرخاء تتسع آفاق العلم وتزداد الرغبة في المعرفة · وتنشط حركة الاستشراق في كثير من البلاد الأوربية وتوجه العناية الى دراسة التراث العربي والوقوف على أحوال العرب وبلادهم وتاريخهم وآدابهم · وفي سنة ١٧٥٩ تظهر في أوربا لأول مرة فكرة ارسال بعثة علمية لدراسة الجزيرة العربية ·

كان صاحب الاقتراح هو يوهان ديفيد ميخائيلس أستاذ الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن Gottingen وقد استطاع أن يقنع الكونت برنشتروف J. H. E. Bernstreff وزير خارجية فريدريك الخامس ملك الدنمرك بضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق بعض المسائل الجغرافية التي وردت في الكتاب المقدس (التوراة) خاصة بجزيرة العرب ، وكانت الدنمرك في ذلك الوقت من الدول ذات المركز المرموق في أوربا · وصادف الاقتراح قبولا لدى الملك وكان من مظاهر اهتمامه به أن شارك في رسم خطة العمل للبعثة المقترحة وفي وضع قائمة بالمشكلات المطلوب الوصول الى حلها ·

وفي صباح اليوم الرابع من يناير سنة ١٧٦١ أبحرت الباخرة الحربية « جرينلند » من ميناء كوبنهاجن في طريقها الى الشرق وعلى متنها خمسة من العلماء لكل منهم تخصصه ومعهم خادمهم الدنمركي الذي كان من جنود سلاح الفرسان السويدي المسرحين ·

كان هؤلاء العلماء الخمسة الذين تكونت منهم البعثة هم :

١ ـ الاستاذ بيتر فورسكال Prof. Peter Forskale وهو سويدي مولدا ومن تلاميذ العالم الكبير ليناوس Linnaeus ومع أن مهنته الطب فقد كانت له دراية واسعة بعلم النبات ·

٢ ـ الدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Christian Carl Cramer وهو دنيمركي متخصص في الجراحة وعلم الحيوان ·

٣ ـ الاستاذ فريدريك كريستيان هافن Prof. Friedrich ChristianVon Haven وهو دنيمركي كذلك متحصص في فقه اللغة والدراسات الشرقية ·

٤ ـ الهر جورج ولهلم بورنفيند Herr. George Welhelm Baurenfeind وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس ·

٥ ـ المهندس كارستن نيبور Garsten Niebuhr الألماني الذي بدأ حياته فلاحا يساعد والده في الحقل ثم هوى المساحة العملية والتحق بجامعة جوتنجن يدرس الفلك والرياضيات ·

ولم يكن لأحد من هؤلاء الرئاسة على الآخرين ، فكلهم له مؤهلاته ومكانته ، وبهذا قضت تعليمات الملك ، واذا كان لأحد منهم الفضل فهو لفورسكال وفون هافن لاجادتهما اللغة العربية . وطلب كل منهم أن يعاون زملاءه ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيقدم عنه تقريرا عند عودته . ولكن مع الأسف لم يعد سوى واحد منهم هو كارستن نيبور الذي قدر له أن يبقى على قيد الحياة فيعود الى الدنمرك ويقدم تقريرا عن رحلته ويضمنه الملاحظات غير الكاملة التي سجلها رفاقه .

ولسنا هنا في حاجة الى تتبع البعثة الدنمركية في رحلتها من مرسيليا الى استانبول والاسكندرية والقاهرة . كل ما يعنينا هو أن البعثة وصلت جدة في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٦٢ ودهش أعضاؤها للمعاملة الكريمة التي لقوها من الأهالي . ومن جدة ساروا الى القنفذة فاللحية وهم يرتدون الملابس الوطنية ، ويقولون عن أنفسهم أنهم في طريقهم الى الهند . ولكنهم أخذوا يتجولون بين المدن اليمنية فذهبوا أولا الى بيت الفقيه وكانت آنذاك أكبر مراكز تجارة البن ، ومنها تفرقوا فقرر نيبور أن يرتاد اقليم تهامة ، وصعد فورسكال في الهضبة يجمع نماذج من النباتات ، وأوغل الآخرون في الداخل فبلغوا تعز وزبيد ، ثم عاد الجميع فاجتمعوا وبداية الصيف في بيت الفقيه ، ومنها هبطوا الى المخا وكان كرامر المتخصص في علم الحيوان قد جمع بعض الثعابين واحتفظ بها في أواني مملوءة بالكحول مما أدى الى أن يرتاب فيه رجال الجمارك وأن يتلفوا مقتنياته . وفي المخا توفي فون هافن فحرمت البعثة من أكثر أعضائها علما باللغة العربية وقررت أن تترك المخا وتنتقل الى تعز حيث المناخ أكثر ملاءمة للصحة . وفيها تلقوا دعوة من امام اليمن لزيارة صنعاء . وفي الطريق اليها هلك فورسكال . ولم يقضوا في صنعاء سوى عشرة أيام عادوا بعدها الى المخا حيث استقلوا مركبا متجهة الى الهند وعلى ظهرها توفي الرسام بورنفيند ثم لم يلبث أن تبعه الخادم السويدي . ثم لحق بهؤلاء كارل كرامر بعد أن بلغت البعثة بومباي بأيام قلائل .

بقي كارستن نيبور وحيدا بعد وفاة رفاقه . ولكن هذا الموقف الأليم لم يفت من عضده ، فقرر العودة الى الجزيرة العربية ليتم مهمته ، وقفل عائدا الى عمان فوصل مسقط في يناير سنة ١٧٦٥ ، ولم يمكث طويلا بعمان ليجوب جهاتها المختلفة

اذ كانت المدة التي حددها الملك الدنمركي للبعثة قد انتهت · ومن ثم سافر نيبور وفقا لخطة السير التي وضعها الملك من قبل فزار بلاد فارس والعراق والشام وتركيا ودول أوربا الوسطى حتى انتهى الى كوبنهاجن فوصلها في ٢٠ نوفمبر ١٧٦٧ بعد أن غاب عنها ما يقرب من سبع سنين · وكان الملك فردريك الخامس قد مات ، فلم يحفل أحد بعودة نيبور من رحلته ولكن الكونت برنشتروف يقدمه للملك الجديد فيجد من الرعاية لديه ما يشجعه على كتابة قصة الرحلة ·

عكف نيبور على كتابة مذكراته باللغة الألمانية ونشر الجزء الاول منها في سنة ١٧٧٢ وفيه يروي قصة الرحلة من كوبنهاجن حتى بومباي · ثم عمد الى نشر مذكرات فورسكال في السنة التالية · وأتبعها بنشر ما أعده بورنفيند من رسوم للنباتات والطيور والاحياء المائية وفاء منه لذكرى رفيقيه · ثم نشر الجزء الثاني من مذكراته · واستنفدت هذه الاعمال كل ما بقى لديه من مال فبقي الجزء الباقي من المذكرات مخطوطا حتى نشر في سنة ١٨٠٨ · وترجمت مذكرات نيبور فيما بعد الى اللغتين الفرنسية والانجليزية ·

ويهمنا في هذا البحث الجزء الاول الذي نشر في كوبنهاجن بالألمانية بعنوان وصف بلاد العرب "Beschreibung Von Arabien," Copenhagen. 1772. والذي ترجمه الى الانجليزية سيلي ونشرت الترجمة في سنة ١٧٨٩ C.W.H. Seely: "Discription of Arabia" Bombay, 1789. ولما كانت هذه الطبعة ناقصة فلقد أعيد نشرها في عام ١٧٧٤ في مجلدين بعنوان رحلات الى الجزيرة العربية "Reisebeschreibung nach Arabien" Copenhagen, 1774 — 8 وقد ترجمها ملخصه الى الانجليزية هيرون ونشرها في أدنبره سنة ١٧٩٢ "R. Heron: Travels in Arabia" 2 Vols. Edinburgh,1792.

لم يمكث نيبور كما تروي مذكراته أكثر من اثني عشر شهرا في الجزيرة العربية ، ولم يزر سوى جزء محدود منها كان معظمه مما سبق للأوربيين معرفته ونعني به اليمن وما جاورها · فما الذي جعل لهذه المذكرات ما بلغته من الأهمية ؟! ان السر في هذا يرجع الى عقلية الرجل نفسه وطريقته في جمع المعلومات · فقد كان يسأل كل من يصادفه وكان قد تعلم من العربية ما يكفي للسؤال والفهم · وكان لديه من الأسئلة ما يدور حول كل شيء · وكان يغربل المعلومات التي يحصل عليها بقصد تنقيتها ، ويمحص كل ما يثبت من حقائق · وكان يلقي نفس السؤال على عدة

أشخاص من مختلف المستويات ليتأكد من صحة الجواب · ولهذا جاءت كتابته ممتازة في نوعيته ادقيقة في أخبارها · ومنها نعرف الشيء الكثير عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر عن السكان وتقاليدهم وطبقاتهم الاجتماعية وعاداتهم في المأكل والملبس والمسكن وأسلوبهم في الاستقبال والتحية ، وعن الحياة الاقتصادية وما تنتجه البلاد من غلات ·

ولا شك أن نيبور قد عرف اليمن أكثر مما عرف غيرها من جهات الجزيرة العربية ، فوصفها وصفا دقيقا جغرافيا وتاريخيا وصور تجزئتها السياسية وكيف انقسمت الى عدد من الامارات المستقلة منها صنعاء وعدن وأبو عريش والجوف ونجران وبلاد حاشد وبكيل ، ونهم ، وخولان ، وكوكبان · وكيف أن تاريخ الحضارة اليمنية كله تصوره أربع مدن هي صنعاء التي تعرف بالمدنية لعظم نفوذها ، وتعز ذات الرياض الزاهرة والزروع اليانعة حتى لقبت بالروضة ، وزبيد ذات الثقافة المزدهرة والدراسات الاسلامية الواسعة ، ثم زمار التي اشتهرت بخيولها العربية الأصيلة · وقد رسم نيبور خريطة لليمن صححت كثيرا من الاخطاء · ولو أنه تمكن من زيارة سائر أنحاء الجزيرة العربية لجاءنا بخارطة تفوق كل من سبقها من خارطات فقد كان الرجل مساحا بارعا يجيد استخدام ما لديه من أدوات الرسم والقياس ·

وتحدث نيبور عن المشيخات العديدة التي وجدها على ساحل الخليج العربي وعن الخصومات القائمة بين حكامها ، وعن النزاع الدائر بين امير الكويت المتمسك باستقلاله وأمير الحسا الطامع في ضم هذه الامارة الى أملاكه ، وعن خراب قرى البحرين بسبب الحروب المتتالية حتى لم يبق بها سوى خمسين قرن وكان بها من قبل ٣٥٠ مدينة وقرية يعمل معظم سكانها في استخراج اللؤلؤ ·

ويشير الى أن الحسا يحكمها شيخ عشيرة بني خالد ، وهي من أقوى العشائر العربية ويدين لها بالولاء عدد من العشائر الصغيرة وسكان الحساسنة وشيعة ، فالسنة هم أهل القرى والبادية أما الشيعة فهم سكان المدن ، ويخطىء الرجل حينما يذكر أن من بين السكان عدد من الصائبة واليهود ·

ومع أن نيبور لم يزر نجد فان حديثه عنها يدل على فطنته ودقة معلوماته. فهو عندما كان في الجزيرة العربية كانت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية قد أخذت تنتشر ، فيدرك أهمية هذه الدعوة ، ويصور الحالة المؤسفة التي كانت الجزيرة قد وصلت اليها فأثارت سخط الامام المصلح. ويتنبأ بنجاح الدعوة ويرى ان معظم ما يقال عنها هو مزاعم باطلة يروجها أعداء الاصلاح ، وينسبون اليها بالباطل أمورا هي أبعد ما تكون عنها.

لقد كان نيبور مثال الرحالة الفطن والكاتب المنصف. كان يتنقل في الجزيرة العربية ممتطيا حمارا ، ومرتديا زيا عربيا ، ومنتحلا اسم عبدالله لشيوعه بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومحاولا ان يكون كأحد أبناء البلاد في سيرته وتصرفاته. ونجده يحذر من يريد التجول في الجزيرة العربية ألا يظنها رحلة نزهة. وعلى الشبان الذين يحبون الرفاهة والأكل الجيد ومعاشرة النساء ألا يفكروا في الرحلة الى هذه البلاد ، فالرحلة اليها تحتاج الى جلد وصبر.

وكان نيبور منصفا للعرب على عكس كثير من الكتاب الأوربيين ، فهو يرى أن لكل شعب فضائله ونقائصه ، وأن ما ينسب الى العرب من نقائص لا يختصون بها وحدهم ولكنها شائعة في أوربا ذاتها ، وان لهم من الفضائل الشيء الكثير ، فهم قوم ودودون يستطيع المرء أن يتجول بينهم في حرية كاملة شريطة ألا يمس احساساتهم ، وهم يحبون الصدق ويكرهون الخداع ، وهم يعرفون انهم لم يخلوا من نقائص وعيوب ولكنهم لا يغفرون لأحد أن يسخر من هذه النقائص. وهم يختلفون عن شعوب أوربا جميعا في أنهم يساعدون الأجنبي على تعلم لغتهم ، ولا يسمحون لأنفسهم بالسخرية منه اذا هو أخطأ التعبير بل يجدون في هذا شيئا من الفكاهة ، ويحاولون أن يردوه الى الصواب.

هكذا كان كارستن نيبور الرحالة المثالي المنصف والكلف بالمعرفة الصحيحة ، فلا عجب ان كان أشهر من كتب عن الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ، وفتح باب الرحلة العلمية الأصيلة لمن جاء من بعده من الرحالة والجوابين.

د. محمد محمود الصياد